الأخذ

عناصر الموضوع

مفهوم الأخذ	٧٢
الأخذ في الاستعمال القرآني	٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٧٤
الأخذ في حق الله عز وجل	٧٧
سُنة الله في الأخذ	٨٨
أخذ الظالمين والمترفين	٩٤

مفهوم الأخذ

أولًا: المعنى اللغوي:

الهمزة والخاء والذال أصل واحد تتفرّع منه فروعٌ متقاربة في المعنى، فالأصل حَوْز الشيء وجبْيُه وجمعه وتحصيله، وذلك تارةً بالتناول، وتارةً بالقهر، وهو خِلَافُ الْعَطَاءِ.

ولفظة «أخذ» في اللغة لها اشتقاقات متعددة تتقارب في المعنى، فتأتي بمعنى الحصول على الشيء بالتناول أو القهر، والأخذ بالذنب بمعنى العذاب والعقاب والإهلاك، واتخذت بمعنى كسبت، والإخاذ الغُدُر وأيضًا تقال لمن يأخذ أرضًا ويتملكها، والأخيذ تقال للأسير وللشيخ الغريب، والأَخيذةُ ما اغْتُصِبَ من شيء فأُخِذَ وقد يأتي الأخذ بمعنى الرمد، ويقال: أخذ إخذهم، أي: سلك طريقهم ومنهجهم، وتطلق الأخذة على الرقية(١).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

يختلف معنى «أخذ» باختلاف السياق الذي ورد فيه المصطلح، ففي كل سياق يحمل معنى مختلفًا وفقًا للسياق الذي ورد فيه، وقد اتفق العلماء والمفسرون على معنى أخذ في السياق الواحد.

ومن معاني الأخذ: وقوع العذاب والإهلاك والاستئصال والعقوبة نتيجة الشرك بالله تعالى، وجحود آياته، وتكذيب رسله، ونتيجة الظلم الشديد(٢).

كما يأتي الأخذ بمعنى الحوز للشيء وتحصيله(٣)، فالأخذ إمّا أن يكون خلاف العطاء، وهو ما كان باليد كالعطاء، وإما أخذ قهر، ومنه أخذ الأرواح، وأخذ العهود والمواثيق، وهذا المعنى ظاهر، والمعنيُ هنا المعنى الأوَل، وكلاهما صفة لله تعالى(٤).

«فمعنى الأخذ: أن تحتوي الشيء، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه في ذاته، أو استمساك غيره به، وقد يكون الأَخْذ بلا ذنب»(٥).

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٦٢، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٣٣٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٧٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩/ ٩٦.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٧، الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨، تاج العروس، الزبيدي، ٩/ ٣٦٣.
(٤) انظر: صفات الله، علوي بن عبد القادر السَقّاف، ١/ ٥٣.
(٥) تفسير الشعراوي، ١٣/ ٨٠٢١.

الأخذ في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أخذ) في القرآن الكريم (٩) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٩	﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]

وجاء الأخذ في القرآن بمعنى العقوبة[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود:١٠٢].

والمفاعلة فيه للمبالغة[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٦٠١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢/ ٦٠١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الاتخاذ:

الاتخاذ لغةً:

أخذت الشيء آخذه أخذًا: تناولته، والمفعول متخذ، والاتخاذ: افتعال أيضًا من الأخذ، وهو مصدر من باب الافتعال، واستخذ أرضًا: اتخذها، والتأخاذ كالتذكار تفعال من الأخذ[(١)].

الاتخاذ اصطلاحًا:

أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدار يتخذها مسكنًا والدابة يتخذها قعده ويكون الاتخاذ التسمية والحكم[(٢)].

الصلة بين الأخذ والاتخاذ:

الأخذ: مصدر جاء بمعنى العذاب والحصول على الشيء، والاتخاذ: أخذ الشيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدار يتخذها مسكنًا، والدابة يتخذها قُعدة، والاتخاذ التسمية والحكم[(٣)].

٢ التناول:

التناول لغةً:

النون والواو واللام أصل صحيح يدل على إعطاء، ونولته: أعطيته، ونالت المرأة بالحديث والحاجة: سمحت، أو همت، و(النوال) العطاء، و(النائل) مثله، يقال: (نال) له بالعطية من باب قال و(ناله) العطية، و(نوله تنويلا) أعطاه نوالًا، و(ناوله) الشيء (فتناوله)، وناولته فتناوله: أخذه[(٤)].

التناول اصطلاحًا:

النيل إدراك الشيء ولحوقه يقال: نالني من فلان معروف، أي: وصل إلي، وأما النول بالواو فمعناه التناول يقال: نلته، أي: تناولته[(٥)]، وقد يأتي التناول بمعنى آخر وهو الإهانة والتعرض بالأذى قولًا أو فعلًا، كقولك: فلما خرج تناوله بعض الخصوم، وتناولاه من الذكر

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٨، لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٧٢، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص٣٣٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦٨٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٠٦٦.
(٥) انظر: فتح البيان، القنوجي، ٢/ ٢٨٣

عبثًا بما لم يكن أهلًا له[(١)].

الصلة بين الأخذ والتناول:

التناول أخذ القليل المقصود إليه، ولهذا لا يقال: تناولت كذا من غير قصد إليه، ويقال: أخذته من غير قصد[(٢)].

٣ البطش:

البطش لغةً:

الباء والطاء والشين أصل واحد، وهو أخذ الشيء بقهر وغلبة وقوة والتناول بشدة عند الصولة، والأخذ الشديد في كل شيء بطش، بطش يبطش ويبطش بطشًا[(٣)].

البطش اصطلاحًا:

البَطْشُ: الأَخذ الْقَوِيُ الشَدِيدُ، والبَطْشة: السَطْوة والأَخذُ بالعُنْف[(٤)].

الصلة بين الأخذ والبطش:

البطش هو إحدى طرق الأخذ، فهو الأخذ القوي الشديد، وقد يطلق الأخذ على تناول الشيء بدون شدة أو قهر، بخلاف البطش الذي لا يكون إلا بالشدة والقهر، فلفظة البطش تدل على مضمون الشدة والغلبة.

٤ الإهلاك:

الإهلاك لغةً:

الهاء واللام والكاف: يدل على كسر وسقوط، والهلاك: السقوط، ولذلك يقال للميت هلك، والهلك الشيء الهالك، واستهلك المال: أنفقه وأنفده، والتهلكة: كل ما عاقبته إلى الهلاك[(٥)].

الإهلاك اصطلاحًا:

«هلاك النفس، حالة الإنسان البعيد عن طريق الخلاص أو النجاة، أو المنغمس في

(١) انظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، ١٠/ ٣٣٨.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٦٢، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٦، لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٢٦٧.
(٤) الصحاح، الجوهري، ٣/ ٩٩٦.
(٥) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٧، لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٥٠٣- ٥٠٨، القاموس المحيط، ص٩٥٨.

الرذيلة»[١]، والإهلاك يكون بافتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك موجود، أو هلاك باستحالة وفساد[٢]، فهو حالة توحي بانتهاء الشيء واستنفاذه سواء كان دمارًا أو موتًا أو استهلاكًا ونفاذًا، وهو نهاية لكل من سلك طريقًا بعيدًا عن طريق الحق والنجاة.

الصلة بين الأخذ والإهلاك:

يشترك الإهلاك مع الأخذ في معنى وقوع العقوبة والعذاب والاستئصال في حق أهله، وحصول ذلك يكون لنفس السبب، وهو: الشرك بالله والظلم وجحود آيات الله وتكذيب رسله.

(١) تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، ١١/ ١٩.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ٥/ ٣٣٨.

الأخذ في حق الله عز وجل

يتناول هذا المبحث الأخذ في حقه تعالى، ومن ذلك نفي استيلاء السِنَة والنوم عن الله، كما تناول المواثيق التي أخذها الله على بني آدم، والمواثيق التي أخذها الله على الأنبياء بتبليغ رسالاته بأمانة وصدق، والمواثيق التي أخذها الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يؤمنوا برسله وكتبه وأن يبلغوا ما في كتبه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وعدم تحريفها، إلا أنهم نقضوا هذه المواثيق إلا من عصمه الله منهم.

أولًا: تنزيه الله عن السِنَة والنوم:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[البقرة: ٢٥٥].

نفى الله عز وجل في هذه الآية أن تأخذه سِنَة ولا نوم، ولم يقل: لا ينام؛ لأن النوم يكون باختيار، والأخذ يكون بالقهر، والنوم من صفات النقص التي اتصفت به المخلوقات، فهي تحتاج إلى النوم من أجل الاستراحة من تعب سبق واستعادة القوة لعمل مستقبل، ولما كان أهل الجنة كاملي الحياة، كانوا لا ينامون[(١)]، «والسِنَة والنوم من الأوصاف المستحيلة في حق الله تعالى، فإن النوم أخو الموت، ومن تأخذه السِنَة والنوم لا يكون قيومًا دائمًا بنفسه، مقيمًا لغيره، فإن السنة والنوم يناقض ذلك»[(٢)]، والسِنَة ما كان من العين فإذا صار في القلب صار نومًا، وقال السدي: السِنَة: ريح النوم الذي يأخذ في الوجه فينعس الإنسان، وهي أول النوم، والنوم معروف وهو فتور يعتري أعصاب الدماغ من تعب إعمال الأعصاب من تصاعد الأبخرة البدنية الناشئة عن الهضم والعمل العصبي، فيشتد عند مغيب الشمس ومجيء الظلمة فيطلب الدماغ والجهاز العصبي الذي يدبره الدماغ استراحة طبيعية فيغيب الحس شيئًا فشيئًا وتثقل حركة الأعضاء، ثم يغيب الحس إلى أن تسترجع الأعصاب نشاطها فتكون اليقظة.

ونفي استيلاء السِنَة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير، وإثبات لكمال العلم، فحياة النائم في حالهما حياة ضعيفة، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس، وفي هذه الجملة تأكيد لما قبلها، وإقرار لمعنى الحياة والقيومية الدائمة الكاملة، وفي لفظ الأخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي.

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ص٧٦.

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني الحنبلي، ص٢٦٣.

فالله عز وجل لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيومًا، فهو الدائم على حال، والقيوم على جميع الأنام، ولو نام كان مغلوبًا مقهورًا؛ لأن النوم غالب النائم وقاهره، ولو وسن لكانت السماوات والأرض وما فيهما دكًا؛ لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته، والنوم شاغل المدبر عن التدبير، والنعاس مانع المقدر عن التقدير بوسنه ، وهذا توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء، وقيام كل شيء به، ولكنه توكيد في صورة تعبيرية تقرب للإدراك البشري صورة القيام الدائم، في الوقت الذي تعبر فيه هذه الصورة عن الحقيقة الواقعة من مخالفة الله سبحانه لكل شيء[1].

جاء في الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: (إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[2].

وينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال إلاّ إذا تضمّن إثباتًا ، فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدحٍ كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإنه يتضمن كمال الحياة والقيام[3]، فالله عز وجل لا ينام، أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، وإلا لكان ذلك نقصًا في حياته وقيوميته.

ولهذا أردف هذين الاسمين بنفي السِنَة والنوم، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ولا يغيب عنه شيء، وجل عن أن يشبهه الأنام في ذاته أو أسمائه أو صفاته أو أفعاله؛ لأن الصفات تابعة لموصوفها فكما أن ذاته لا تشبه الذوات فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقات[4].

«وفي ذلك نفي النقائص عن الله المتضمن لإثبات الكمالات»[5].

فحياة الله عز وجل غير قابلة للزوال ولا للنقص ولا للابتداء، بخلاف حياة الإنسان فإنه وإن حاول أن يمتنع عن النوم فلابد أن يأخذه النوم أو يهلك، فالحاصل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥/ ٣٨٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٢٧٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام: (إن الله لا ينام)، رقم ٢٩٤.

(٣) العواصم والقواصم، ابن الوزير، ٤/ ١٣٤.

(٤) انظر: معارج القبول، حافظ الحكمي، ١/ ٢٠٨.

(٥) تقريب التدمرية، ابن عثيمين، ص١٥.

أن الله له الحياة الكاملة أزلًا: ابتداء وانتهاء واستمرارًا، فابتداء حيث لم تسبق، وانتهاء حيث لا يلحقها زوال، واستمرارًا حيث إنها حياة كاملة لا يعتريها سِنَة ولا نومًا ولا نقصًا بأي نوع من أنواع النقص[1].

ثانيًا: أخذ الميثاق:

١ . أخذ ميثاق النبيين.

بعد أن اصطفى الله تعالى الأنبياء كلفهم بتبليغ رسالته لأقوامهم، وأخذ منهم ميثاقًا غليظًا أن يبلغوا هذه الرسالة بأمانة وإخلاص، وأن يصدق بعضهم بعضًا، فجميعهم يحملون الرسالة نفسها، فأقروا على ذلك الميثاق، وشهد الله معهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾

[آل عمران:٨١].

تتحدث الآية عن أخذ الله ميثاق النبيين صلوات الله عليهم فيخاطب النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر وقت أخذه تعالى لميثاق الأنبياء.

وقد اختلف في تفسير الميثاق على أقـوال:

الأول: أن الله أخذ ميثاق الأنبياء أن يصـدق بعضهـم بعضـًا بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضًا بذلك، فهـذا معنى النصرة له، والإيمـان به.

وهـو ظـاهر الآية، فحاصله أن الله أخذ ميثاق الأول مـن الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر وينصره.

والقول الثاني: أن الله أخـذ ميثاق الذين مع النبيين.

والثالث: أن في الكلام حذفًا، والمعنى: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا.

وقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ هو من الإقرار، سمي العهـد إصـرًا لما فيه من التشـديد والمعنى: وأخـذتم على ذلك عهـدي، ويستأنف الحديث بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا﴾ وكأنه أراد القول: مـاذا قالـوا عند ذلك؟ فقيل: قالـوا: أقـررنا. وإنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفـاء بذلك[2].

قـوله: ﴿فَٱشْهَدُوا۟﴾ أي: فليشهـد بعضكـم على بعـض بالإقـرار.

وقيل: الخطـاب فيه للملائكة.

﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي: وأنـا من

---

(١) انظر:شرح العقيدة السفارينية، ابن عثيمين، ص١٧١.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١ / ٥٣٧.

الشاهدين على إقراركم ذلك.

وإدخال (مع) على المخاطبين، لأنهم المباشرون للشهادة حقيقة، وفيه من التأكيد والتحذير مالا يخفى.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق، والتوكيد بالإقرار والشهادة، ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المتولون المتصفون بالصفات القبيحة ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة من الكفرة[(١)].

فمما سبق يتبين لنا أن الله سبحانه أخذ موثقًا جليلًا كان هو شاهده وأشهد عليه رسله، موثقًا على كل رسول، أن صدق الأنبياء الذين سبقوه وكتبهم فهي جميعها من عند الله، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه، فجميعهم من المنبع نفسه، وجعل هذا عهدًا بينه وبين كل رسول.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

يخاطب المولى عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا: واذكر حين أخذنا من النبيين جميعًا ميثاقهم، ومنك يا محمد خصوصًا، ومن نوح وابراهيم وعيسى عليهم السلام، وقد أخذ الله ذلك الميثاق ليسألهم يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين، أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم؛ لأن من قال للصادق: صدقت، كان صادقًا في قوله، أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم، وتأويل مسألة الرسل: تبكيت الكافرين بهم، و قدم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على نوح ومن بعده؛ وذلك لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذراريهم، فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل هؤلاء المفضلين: قدم عليهم لبيان أنه أفضلهم، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه، وقال: مِيثَاقًا غَلِيظًا؛ للدلالة على عظم الميثاق وجلالة شأنه في بابه، وقيل: الميثاق الغليظ: اليمين بالله على الوفاء بما حملوا، وقد أكد الله على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين، وعقاب الكافرين، فقد أعد للمؤمنين جنات النعيم كما أعد للكافرين عذابًا أليمًا[(٢)].

فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، ونحن نشهد أن الرسل قد بَلَغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٥٤.

(٢) انظر:الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٣٢.

وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه، ولا شك، ولا امتراء، وإن كذبهم مَنْ كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومَنْ خالفهم فهو على الضلال[1].

٢. أخذ ميثاق بني آدم.

خلق الله عز وجل بني آدم، وكرمهم على سائر المخلوقات، وجعلهم مستخلفين في الأرض، لإعمارها وإفراده بالعبادة، فأخذ عليهم الميثاق وهم في عالم الذر بأنه هو ربهم وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة، وأشهدهم على ذلك، لتكون حجة عليهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

يخاطب المولى عز وجل في هذه الآية نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم قائلًا له: واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به.

ولهذه الآية تأويلان:

أحدهما: قول البعض: وإذ أخذ ربك من بني آدم عليه السلام من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فقال الله وملائكته شهدنا عليكم بإقراركم بأن الله ربكم كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

والثاني: قال آخرون: ذلك خبر من الله عن قِيل بعض بني آدم لبعضٍ حين أشهد الله بعضهم على بعض، وقالوا: معنى قوله: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك[2].

واختلف في هذه الآية، هل هي خاصة أو عامة، فقيل: الآية خاصة؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، فخرج من هذا الحديث من كان من ولد آدم عليه السلام لصلبه.

وقيل: هي مخصوصة فيمن أخذ عليه العهد على ألسنة الأنبياء.

وقيل: بل هي عامة لجميع الناس؛ لأن كل أحد يعلم أنه كان طفلًا فغذي وربي، وأن له مدبرًا وخالقًا.

فهذا معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

ومعنى ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: إن ذلك واجب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم،

(١) انظر:تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٨٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣ / ٢٢٢.

وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظ.

ووجه النظم على هذا: وإذ أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم، وإنما لم يذكر ظهر آدم عليه السلام؛ لأن المعلوم أنهم كلهم بنوه، وأنهم أخرجوا يوم الميثاق من ظهره.

فاستغنى عن ذكره لقوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ بالجمع؛ لأن الذرية لما كانت تقع للواحد أتى بلفظ لا يقع للواحد فجمع لتخلص الكلمة إلى معناها المقصود إليه لا يشركها فيه شيء وهو الجمع؛ لأن ظهور بني آدم استخرج منها ذريات كثيرة متناسبة، أعقاب بعد أعقاب، لا يعلم عددهم إلا الله، فجمع لهذا المعنى[(١)].

والقول في ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ لدلالة حالهم على الاعتراف بالربوبية لله تعالى.

وحاصل المعنى: أن الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك، وتحصيل إدراكه إذا جرد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها.

والمقصود من قصة أخذ العهد تذكير المشركين بما أودع الله في الفطرة من التوحيد.

وهذا الأسلوب هو من تحويل الخطاب عن مخاطب إلى غيره، وليس من الالتفاف لاختلاف المخاطبين، والمعنى: أن ذلك لمَا جُعل في الفطرة عند التكوين كانت عقول البشر منساقة إليه، فلا يغفل عنه أحد منهم فيعتذرَ يوم القيامة إذا سئل عن الإشراك، بعذر الغفلة؛ فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة، ولذلك وقع تقدير حرف نفي أي: أنْ لا تقولوا، وعُطف عليه الاعتذار بالجهل دون الغفلة بأن يقولوا: إننا اتبعنا آباءنا وما ظننا الإشراك إلا حقًا، فلما كان في أصل الفطرة العلمُ بوحدانية الله بطل الاعتذار[(٢)].

٣. أخذ ميثاق أهل الكتاب.

بعد أن أرسل الله النبيين إلى أهل الكتاب، وأنزل عليهم الكتب السماوية بما فيها من تشريع، أخذ على أهل الكتاب ميثاق تبيينها للناس وتعليمهم إياها، ولكنهم قاموا بتحريف الكتب السماوية؛ وفقًا لأهوائهم، وتركوا شريعة الله السليمة وراء ظهورها ورفضوا الاحتكام لها، كما أخذ علي بني إسرائيل ميثاقًا بعدم الشرك بالله وعدم تكذيب الأنبياء، ولكنهم كعادتهم لا عهد لهم ولا ذمة، وخير دليل على ذلك قتلهم للأنبياء ومعاداتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما يفعلونه من معاداة للإسلام والمسلمين اليوم في فلسطين، واعتدائهم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣١٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٦٥.

على حرمات بيوت الله، وسعيهم الحثيث لهدم المسجد الأقصى، فلا أمان لهم إلى يوم القيامة، وكذلك أخذ المواثيق على النصارى باتباع عيسى عليه السلام ولكنهم أشركوا بالله واتخذوا من المسيح إلهًا لهم، فألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

تحدثت الآيات السابقة عن شُبه اليهود التي حاولوا من خلالها الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فرد عليها ثم أتبعه بهذه الآية؛ وذلك لأنه تعالى أوجب في التوراة والإنجيل على أمة موسى وعيسى عليهما السلام أن يشرحوا ما في هذين الكتابين من الدلائل الدالة على صحة دين محمد صلى الله عليه وسلم وصدق نبوته ورسالته، والمراد منه التعجب من حالهم، كأنه قيل: كيف يليق بكم إيراد الطعن في نبوته ودينه مع أن كتبكم ناطقة ودالة على أنه يجب عليكم ذكر الدلائل الدالة على صدق نبوته ودينه.

وكان أهل الكتاب يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم وكان من طرق إيذائهم له أنهم كانوا يكتمون ما في التوراة والإنجيل من الدلائل الدالة على نبوته فكانوا يحرفونها و يذكرون لها تأويلات فاسدة، أما عن كيفية أخذ الميثاق كان ذلك من خلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث أوردوا الدلائل في جميع أبواب التكاليف وألزموهم قبولها، فالله سبحانه وتعالى إنما أخذ الميثاق منهم على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فذلك التوكيد والإلزام هو المراد بأخذ الميثاق.

والمراد من البيان ذكر تلك الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل، والمراد من النهي عن الكتمان أن لا يلقوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات المعطلة، وظاهر هذه الآية وإن كان مختصاً باليهود والنصارى فإنه لا يبعد دخول المسلمين فيه أيضًا؛ لأنهم أهل القرآن وهو أشرف الكتب[1]، فنبذ أهل الكتاب هذا الميثاق وراء ظهورهم، بدلوا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا الفانية، فكانوا في هذه الصفقة مغبونين، حيث جعلوا العَرَضَ الفاني بدل النعيم الباقي في الآخرة، فبئس الشراء شراؤهم، وبئست هذه المبادلة، وقد قال النبي: صلى الله عليه وسلم: **(من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار)**[2].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ١٠٥.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم ٢١٣٥، ٢/ ٣٣٦.

وإذا أخبر العالم الديني بحكم شرعي فعليه أن يكون أمينًا في نقله حاذقًا في فهمه، فلا يحرفه ولا يبدله، ولا يبتر منه شيئًا، ولا يدلس ويعمي الأمور ويغطي الحقائق، ولا يطلب الثناء على ما فعل من بيان الخبر المشوه أو الحكم المبدل، وهو في هذا كاذب دجال[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)﴾ [البقرة: ٨٣، ٨٤].

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى: واذكر أيها النبي حين أخذنا ميثاق بني إسرائيل، بأن ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وبأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا، وأن تصلوا رحمه، وتعرفوا حقه، وأن تتعطفوا على اليتامى بالرحمة والرأفة، وبالمساكين: أن تؤتوهم حقوقهم التي ألزمها الله أموالكم، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وفي ذلك بيان حقوق سائر الأمة، وهي النصيحة لهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم، وإقامة الصلاة تكون بأدائها بحقوقها الواجبة عليكم فيها، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وذلك لإصلاح شئون المجتمع، فقد كان يجب عليهم زكاة في أموالهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾.

هذا خبر من الله عن يهود بني إسرائيل، أنهم نكثوا عهده ونقضوا ميثاقه، بعدما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبدوا غيره، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمروا عباد الله بما أمرهم الله به ويحثوهم على طاعته، ويقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم فخالفوا أمره في ذلك كله، وتولوا عنه معرضين، إلا من عصمه الله منهم، فوفى لله بعهده وميثاقه[2].

ثم أتبع ذلك بالنهي عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضًا من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثرًا شريفًا يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى

قال الترمذي: «حديث صحيح».

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٢٧١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٩٢.

إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده، فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الإسرائيليين في الكتاب وإن لم يجروا عليها في العمل.

قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله، وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه السلام.

ثانيهما: أن المراد الحاضرون أنفسهم، أي: أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به[1].

ولكن اليهود اعتادوا الغدر، واستماتوا في حب المادة، أعرضوا قصدًا وعمدًا عن تنفيذ الأوامر الإلهية، وعن العمل بالميثاق.

فهذا هو طبع بني إسرائيل القتل والغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود وتحريف الكتب السماوية، وذلك منذ أن خلقوا مرورًا بزمن النبي صلى الله عليه وسلم ووصولًا إلى زماننا هذا فطبعهم وأخلاقهم الفاسدة لا تتغير.

فلا بد أن يحرص المسلمون على معرفة طبائعهم ومكائدهم حتى يتحرزوا الوقوع فيها.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:١٤].

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنًا منه لهم، وطردًا عن بابه وجنابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح.

قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾، أي: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١/٣٠٨.

والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرته، ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود[1]، فألصقنا بهم العداوة وسلطنا بعضهم على بعض.

﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ أشار بهذا إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما، وقيل: أشار إلى افتراق النصارى خاصة، لأنهم أقرب مذكور؛ وذلك أنهم افترقوا إلى اليعاقبة والنسطورية والملكانية؛ أي: كفَر بعضهم بعضاً.

ومن أحسن ما قيل في معنى ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أن الله عز وجل أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم، فكل فرقة مأمُورة بعداوة صاحبتها وإبغاضها؛ لأنهم كفار.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ تهديدٌ لهم؛ أي: سيلقون جزاء نقض الميثاق[2].

«ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصه الله سبحانه في كتابه الصادق الكريم، وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله، سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة، أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية، أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات، وهي ماضية إلى يوم القيامة»[3].

ثالثًا: أخذ نواصي الدواب:

قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود:٥٦].

أي: أنه ليس من شيء يدب على الأرض، إلا والله مالكه، وهو في قبضته وسلطانه ذليلٌ له خاضعٌ.

والناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس، ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته.

والمعنى: هي في قبضته وتنالها بما شاء قدرته، فهو آخذ بناصيتها يحييها ويميتها، وهو مالكها والقادر عليها، ويقهرها؛ لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته.

وإنما خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٦٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١١٧.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٨٦٠.

ذلك إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع فيقولون: ما ناصية فلان إلا بيد فلان.

أي: أنه مطيع له يصرفه كيف شاء، فخاطبهم بما يعرفون في كلامهم، وهي صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض، بما فيها الدواب من الناس، وهذه صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة قوم هود وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وغلظ حسهم ومشاعرهم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي، الذي كان عليه نبي الله هود عليه السلام، فهو يجد هذه الحقيقة واضحة.

إن ربه ورب الخلائق قوي قاهر، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرًا.

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالًا للشك في عاقبة أمره ولا مجالًا للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبدًا.

إن ربي على طريق الحق يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بمعصيته، ولا يظلم أحدًا، ولا يقبل إلا الإسلام.

فلا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم، ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل، فهو لا يخفى عليه مستتر، ولا يفوته هارب[1].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٥/ ٣٦٣، الكشف والبيان، الثعلبي، ٥/ ١٧٤، الوجيز، الواحدي، ص٥٢٤.

سُنة الله في الأخذ

يتناول هذا المبحث بيان سُنة الله في الأخذ، فيظهر عدله ورحمته، فجل شأنه لا يؤاخذ بالنسيان والخطأ الغير متعمد، ولا يؤاخذ بأيمان اللغو، وإنما يؤاخذ الإنسان على ما كسب قلبه من عزم ونية، وعلى أيمانه المنعقدة، كما أنه تعالى لا يؤاخذ الإنسان إلا بعد إقامة الحجة عليه، وإزالة الأعذار، ولا يؤاخذ إلا بعد انتهاء الأجل المحدد، فيؤخرهم إلى أجل معلوم عنده ليحاسبهم، فيغفر لمن تاب وأناب، ويعذب من جحد وعاند.

أولًا: أسباب الأخذ:

١ . يؤاخذ بالأيمان المنعقدة.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

بعد أن بينت الآية الكريمة أن الله عز وجل لا يؤاخذنا على اللغو في الأيمان؛ بينت أن الله يؤاخذنا على الأيمان المنعقدة، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ فمعناه: يؤاخذكم ويحاسبكم على ما أكدتم من الأيمان، فمن قصد الأمر فحلف بالله وعقد على اليمين قلبه متعمدًا فعندها تلزم فيه الكفارة إذا حنث بإجماع، وكفارة حنث اليمين هي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

والمُكفِر في اليمين مُخيَر بين هذه الثَلاث، فمن لم يجد فعليه صيام ثلاثة أيام وهي الكفارة التي يعاد إليها في اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى، ثم أمر الله بحفظ الأيمان وذلك بمعنى لا تكثروا من الحلف، واحفظوها عن الحنث إذا لم يكن ما حلفتم عليه خيرًا، لئلا يذهب تعظيم اسم الله عن قلوبكم، يبين الله لكم آياته وشرائعه لعلكم تشكرون نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج(١).

«فعلى المؤمن أن يحترم عهد الله وميثاقه، ويعظم ذات الله وجلاله، فيبتعد عن كل مظاهر الإخلال بهيبة الله وقدسيته، وإذا حلف بالله تعالى وجب عليه صون يمينه إذا كان الأمر المحلوف عليه قربة أو طاعة، وجاز له مخالفة مقتضى اليمين بل يجب إذا كان المحلوف عليه معصية»(٢).

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب، ٣/ ١٨٥٠، الوجيز، الواحدي، ١/ ٣٣٣.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٤٩٢.

٢. يؤاخذ بما كسبت القلوب.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

بعد أن بين الله عز وجل أنه تعالى لا يؤاخذ باللغو في اليمين، بَيَّنَ تعالى أن المؤاخذة تكون على ما قصده القلب وعزمه، وكسب القلب هو العقد والنية، وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

والله غفور لمن حنث وكفر بيمينه، حليم حيث رخص لكم في ذلك ولم يعاقبكم، غفور لعباده فيما لغوا من أيمانهم التي أخبر أنه لا يؤاخذكم عليها.

ولو شاء آخذهم وألزمهم للكفارة في العاجل والعقوبة عليها في الآجل.

حَلِيمٌ يعني في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة.

والحليم ذو الصفح والأناة الذي لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة(١).

٣. يؤاخذ بعد إقامة الحجة وإزالة العذر.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

[النحل:١٠٦-١٠٩].

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به أن عليه غضبًا من الله، وذلك لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، ولهم عذاب عظيم في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة؛ لأجل الدنيا.

أولئك طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلم يفهموا المواعظ ولا سمعوها، ولا أبصروا الآيات التي يستدل بها على الحق، فهم غافلون عما يراد بهم، فلا غفلة أعظم من غفلتهم هذه لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ١٤٨، النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٢٨٧.

﴿مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما أصابه من ضرب وأذى، ولكن قلبه يأبى ما يقول، بل مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

قال أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذبوه حتى باراهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**) قال: مطمئنًا بالإيمان. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**فَإِنْ عادُوا فَعُدْ**)(١).

وقد أجمع العلماء على أنه من أكره على الكفر إكراهًا ملجيًا يجوز له أن يتلفظ بما أكره عليه مطمئنًا قلبه بالإيمان بهذه الآية(٢).

قال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩].

يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أخطأتم الحق، فضللتم عنه، وخالفتم الإسلام وشرائعه، من بعد مجيء الحجج الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق، واتضحت لكم صحة أمر الإسلام بالأدلة التي قطعت عذركم أيها المؤمنون، فاعلموا أن الله ذو عزة، غالب قادر على أنواع الانتقام، ولا يدفعه عن عقوبتكم على مخالفتكم أمره ومعصيتكم إياه دافع، وحكيم فيما يفعل بكم من عقوبته على معصيتكم إياه، بعد إقامته الحجة عليكم، وفي غيره من أموره، فهو لا ينتقم إلا بالحق(٣).

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

رتب الله عز وجل الثواب العظيم على الموافقة، كما رتب العقاب الشديد على المخالفة والمشاققة، ووكل المخالف إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعانده فيما جاء به ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرًا ويزداد ضلالًا إلى ضلاله.

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦٠٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٢٥٩.

بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

هذه الآية فيها إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، سبحانه أعدل العادلين لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة، وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه، فسبحانه منزه عن الظلم، فعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اختصمت الجنة والنار فذكر الحديث إلى أن قال: (وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأنه ينشئ للنار خلقًا فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثًا...)[2]، فإن هذا إنما جاء في الجنة؛ لأنها دار فضل، وأما النار؛ فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه[3].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٥/ ٤٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله تعالى: (إن رحمة الله قريب من المحسنين)، رقم ٧٤٤٩، ٩/ ١٣٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٥٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٥٥.

٤ . يؤاخذ عند انتهاء الأجل المقدر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

لما حكى سبحانه عن القوم عظيم كفرهم بيّن أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة؛ إظهارًا للفضل والرحمة والكرم، فقال: ولو يؤاخذ الله الكفارَ بكفرهم ومعاصيهم ما ترك عليها، أي: على الأرض وإن لم يذكر فقد دل عليها ذكر الناس وذكر الدابة، فإن الجميع مستقرون على الأرض، لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى معلوم عنده وهو منتهى حياتهم وانقضاء أعمارهم أو أجل عذابهم، وفي هذا التأخير حكمة بالغة منها الإعذار إليهم وإرخاء العنان معهم، ومنها حصول من سبق في علمه من أولادهم فإذا جاء أجلهم الذي سماه لهم حقت عليهم كلمة الله سبحانه في ذلك الوقت من دون تقدم عليه ولا تأخر عنه، والساعة المدة القليلة، فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه[4].

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٦١٣، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٢٢٧.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

بعد أن هدد المشركين بجريان سنته فيهم، بإهلاكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم، ذكر حلمه بعباده وأنه لو آخذهم بما كسبوا من الذنوب وعملوا من الخطايا، ما ترك على ظهر الأرض من دابة من الدواب التي تدب كائنة ما كانت، أما بنو آدم فلذنوبهم، وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم، قال ابن مسعود: «كاد الجُعَل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم»، ولكن يؤجل عقابهم إلى وقت محدد، وهو يوم القيامة، فإذا جاء أجلهم فإن الله يحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، فهو البصير بحال عباده لا يخفى عليه شيء من أمرهم، دق أو جل، ظهر أو بطن، وفي هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين، وتذكير لهم عن أن يغرهم تأخير المؤاخذة فيحسبوه عجزًا أو رضًا من الله بما هم فيه، اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك أنت الخبير البصير(١).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٣٦١.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

والمعنى: وربك يا محمد الساتر على ذنوب عباده بعفوه إذا تابوا منها ذو الرحمة بهم، ولو آخذ هؤلاء المعرضين عن آياته بما اكتسبوا من الذنوب والآثام بالعذاب في الدنيا لعجل لهم ذلك، لكنه برحمته وعفوه لم يعجل لهم ذلك، بل لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم، أنزل بهم بأسه(٢).

ثانيًا: موانع المؤاخذة:

١. لا يؤاخذ باللغو في الأيمان.

قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

اللغو من اليمين: هو الساقط الذي لا يعتد به، وما تعوده الناس في الكلام «لا والله» و«بلى والله»، فأما إذا حلف على شيء أنه كان حاصلًا جدًا ثم ظهر أنه لم يكن

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٢.

فقد قصد الإنسان بذلك اليمين المتصل تصديق قوله وربط قلبه بذلك فلم يكن لغوًا البتة، وقد ذكر سبحانه وتعالى قبل هذه الآية النهي عن كثرة الحلف فذكر عقيب ذلك حال هؤلاء الذين يكثرون الحلف على سبيل الاعتياد في الكلام على سبيل القصد إلى الحلف، وبين أنه لا مؤاخذة عليهم ولا كفارة؛ لأن إيجاب الكفارة والمؤاخذة عليهم يفضي إما إلى أن يمنعوا عن الكلام أو يلزمهم في كل لحظة كفارة وكلاهما حرج في الدين، ويؤيد هذا المعنى ما روته عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٥].

فِي قَوْلِ الرَّجُلِ: لاَ وَاللَّهِ وَبَلَى وَاللَّهِ[١]، فهذه الآية تبين أن الله لا يؤاخذ بما يجري على الألسنة من الأيمان اللاغية، التي يتكلم بها العبد، من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه[٢].

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

تؤكد هذه الآية أن الله عز وجل لا يؤاخذنا على أيمان اللغو أيضًا، فاللغو ما لَا يقصد به اليمين، وما لَا تكسبه القلوب، ولا يوثَق به الكلام بالامتناع عن الفعل، أو توكيد إيقاع الفعل في المستقبل، لَا مؤاخذة عليه، فهو يجري على الألسنة من غير قصد الحلف[٣].

٢. لا يؤاخذ بالنسيان غير المتعمد الخطأ.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

توضح الآية الكريمة أن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا ما يسعها فلا يجهدها، ولا يضيق عليها في أمر دينها، فيؤاخذها بهمة إن همت، ولا يؤاخذها بوسوسة إن عرضت لها، ولا بخطرة إن خطرت بقلبها[٤].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنَ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَتِي مَا حَدَثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَمْ)[٥].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)، رقم ٤٦١٣، ٦/ ٥٢.

(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري، ١/ ٦١٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٠١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٢٦٤.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤١، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٥/ ٢٣٣٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ١٣١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم ٥٢٦٩، ٧/ ٤٦.

﴿أَخْطَأْنَا﴾ المراد هنا أي: لا تعاقبنا بما أدى بنا إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة؛ لأن المؤاخذة إنما هي بالمقدور، والنسيان والخطأ ليس بمقدورين، ويجوز أن يراد النسيان نفسه والخطأ، أي: لا تؤاخذنا بهما كما آخذت به من قبلنا[١].

وأما الأحكام الدنيوية المتعلقة بهما فالصحيح أنها تختلف بحسب الوقائع، فقسم لا يسقط باتفاق؛ كالغرامات والديات والصلوات المفروضات، وقسم يسقط باتفاق؛ كالقصاص والنطق بكلمة الكفر، وقسم ثالث مختلف فيه؛ كمن أكل ناسيًا في رمضان أو حنث ساهيًا، وهذا يدل على أن أحكام العباد وحقوق الناس ثابتة[٢]، وعلى ذلك فإن الخطأ والنسيان والإكراه معفو عنها بأمر الله تعالى، لكن ينبغي معرفة أن ما نسي من الواجبات فإنه يقضى إذا لم يفت سببه، فإذا نسي الإنسان أن يصلي فإنه يصلي إذا ذكر لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك)[٣].

(١) انظر: السراج المنير، الشربيني، ١/ ١٩١، فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٥٣.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ١٣٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر، رقم ٥٩٧، ١/ ١٢٢.

أخذ الظالمين والمترفين

يتناول هذا المبحث نماذج من أخذ الظالمين والمترفين؛ كفرعون وقومه، وعاد وثمود، وأقوام لوط، ونوح، وشعيب، وموسى، وتوضيح وسائل أخذهم وإهلاكهم الذي حل بهم لكفرهم وطغيانهم وتكذيبهم لآيات الله ورسله؛ كالغرق، والصيحة، والصاعقة، والريح الصرصر العاتية، وفي هذا كله عبرة وعظة وآيات للجاحدين والظالمين والعاصين الله ورسله.

أولًا: نماذج من أخذ الظالمين والمترفين:

١. أخذ فرعون وقومه وجنوده:

قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

بين الله تعالى أن الكفار به وبرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم، وأنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا عند حلول العقوبة بهم، كسُنَّة آل فرعون وعادتهم، فقد كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل، فأخذهم الله بذنوبهم عدلًا منه لا ظلمًا، والله شديد العقاب على من كفر وأتى الذنوب على اختلاف أنواعها

وتعدد مراتبها، وهو أخذ الانتقام في الدنيا، وهذه سنته الجارية في الأمم السابقة، وقد ضرب الله هذا المثل عبرة وموعظة؛ لأنهم إذا استقروا الأمم التي أصابها العذاب، وجدوا جميعهم قد تماثلوا في الكفر، وكفى بهذا الاستقراء موعظة لأمثال مشركي العرب، وقد تعين أن يكون المشبه به هو وعيد الاستئصال والعذاب في الدنيا(١).

٢. أخذ ثمود:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

بيَن الله تعالى في هذه الآية مصير ثمود وهم قوم صالح عليه السلام، فقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بينا لهم طريق الهدى، وأنا قادرون على البعث وعلى كل شيء فلا شريك لنا، وكان بيان ذلك بالناقة البيان فأبصروا ذلك بأبصارهم، فكرهوا ذلك لما يلزمه من ترك طريق آبائهم، ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ والضلال الناشئ عن عمى البصر أو البصيرة أو هما معًا ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ أي: أوجدوا من الأفعال والأقوال ما يدل على حب ذلك وعلى طلب حبه فعموا فضلوا، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ﴾ أي: بسبب ذلك داهيةُ العذابِ وقارعةُ ﴿الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي: المهين والمخزي، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة(٢).

٣. أخذ عاد:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨].

هذه الآيات بينت العذاب الذي وقع على عاد، وهم قوم هود، حيث أهلكهم الله تعالى هلاكًا ساحقًا بريح شديدة الصوت، شديدة البرد، قاسية شديدة الهبوب، ووصفها بالعاتية: التي عتت عن الطاعة فلم يقدروا على ردها لشدة هبوبها، بل أهلكتهم حيث سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام لا تنقطع ولا تهدأ، وكانت تقتلهم بالحصباء، متتابعات، تحسمهم حسومًا وتفنيهم وتذهبهم موتى كأنهم أعجاز نخل خاوية ساقطة، فلم يبق لهم أثرًا، وذلك العقاب نتيجة تكذيبهم بيوم القيامة، وكفرهم بالله وبرسله وآياته، وفي هذا تخويف لأهل مكة وغيرهم، فهذا هو مصير كل من يسلك طريقهم(٣).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٢٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٧٤.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ١٦٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٨/ ٩.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٣٤، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٨٤.

٤. أخذ قوم لوط:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ *... فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ * فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٥٨- ٧٤].

لما كثر فساد قوم لوط عليه السلام وعظم شرهم، أرسل الله الملائكة بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه، ويكذبون لوط عليه السلام حين يعدهم به، ونجى الله لوط وأهله وأمرهم أن يخرجوا من المدينة والناس نيام، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلًا فنجو، أما قوم لوط فقد أقسم الله أنهم لفي سكرتهم يعمهون في ضلال وغفلة، وأوقع العذاب على قومه وامرأته، فأخذتهم صيحة العذاب وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد، فقلب عليهم مدينتهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل تتبع فيها من شذ من البلد منهم، وفي هذا عبرة وعظة للمتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراسة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصًا هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات[(١)].

٥. أخذ قوم نوح:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

ذكر الله تعالى في الآيات السابقة لهذه الآية أن القرآن هداية الله للعالمين، ثم أعقبه بذكر المجادلين المعاندين، وبيَن أنه لا يجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآيات الله، المعاندون لرسله، فيجب على العاقل ألا يغتر بتصرفهم وتقلبهم في هذه الدنيا ونعيمها، فما هم عليه من النعيم متاع زائل، فالله يمهلهم ولا يهملهم، بل إن أخذه بعد ذلك النعيم أخذ عزيز مقتدر.

وفي الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، ووعيد شديد للكفار، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم؛ كقوم نوح وقوم عاد وثمود وفرعون وأمثالهم، حيث همت كل أمة من الأمم المكذبين أن يقتلوا رسولهم ويبطشوا به وجادلوا رسلهم بالباطل ليزيلوا ويبطلوا به الحق.

فأخذهم الله وأهلكهم بعقاب يستحق العجب والإعجاب، ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك[(٢)]، فهذا

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٥/ ٥٣٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب،

هو حال كل المكذبين بالرسل في كل زمان.

٦. أخذ قوم شعيب:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

في الآيات السابقة لهذه الآية ذكر لقصة شعيب عليه السلام مع قومه أهل مدين، كيف أنهم كانوا في ضلال وشرك، يتهالكون على كسب الحطام بأنواع الرذائل، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بعبادة الله وتوحيده، ونهاهم عن أن يبخسوا الناس أشياءهم في الكيل والميزان، فهم في نعمة كبيرة وسعة، فقد كان يخشى عليهم زوال هذه النعمة، فلم يستجيبوا له بل كانت ردودهم استهزاء به وبدعوته، فهو لا يريد إلا إصلاح نفوسهم، ولكنهم أصروا على ما هم عليه، فأخبرهم أن ينتظروا عذابًا من الله يهلكهم نتيجة كفرهم، ولما جاء أمر الله تعالى نجّى شعيبًا والذين آمنوا معه وذلك رحمة من الله، وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فهلكوا وأصبحوا في ديارهم ميتين[1].

٧. أخذ قوم موسى:

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٥٣].

تبيَن هذه الآية أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابًا من السماء مكتوبًا؛ كما جاء موسى بني إسرائيل بالتوراة، قالوا له: إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، فأعلمه الله عز وجل أنهم قد سألوا موسى عليه السلام أكبر من هذا ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: رؤية منكشفة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: صعقوا بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم، وعظيم ما سألوا موسى عليه السلام مما ليس لهم أن يسألوا مثله[2].

٥/ ٣٠٦٦.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ١٢٣.

(٢) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب، ٢/ ١٥١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٤٦.

ثانيًا: وسائل أخذ الظالمين والمترفين:

١. أخذ المجرمين والمترفين في الدنيا.

❁ **الأخذ بالجدب ونقص الثمار.**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف:١٣٠].

أراد بالسنين هنا القحط والجدب، أي: ولقد أخذنا آل فرعون بالجدب والقحط والجوع سنة بعد سنة ونقص من الثمرات يعني: وإتلاف الغلات بالآفات، لعلهم يتعظون وترق قلوبهم؛ فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب، وترغب فيما عند الله عز وجل من الخير[(١)].

❁ **الأخذ بالغرق.**

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

بينت الآيات عاقبة فرعون وقومه، بعد أن استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله؛ فأخذ فرعون وجنوده فنبذناهم في اليم.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء:١٠٣].

فكانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بعقوبة الآخرة، فهذه هي دعوة للتأمل في حال وعاقبة الظالمين المتكبرين[(٢)].

❁ **الأخذ بالريح.**

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة:٦-٨].

وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر، أي: باردة تحرق ببردها كإحراق النار، قطعتهم وأذهبتهم، فهي القاطعة بعذاب الاستئصال، فلم تبق منهم أحدًا[(٣)]، كما قال تعالى في قوم عاد: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩].

❁ **الأخذ بالطوفان.**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤].

وهنا يحكي عاقبة قوم نوح، فبالرغم من طول مقامه فيهم إلا أن هذا المكوث ما زادهم إلا شكًا في أمره، وجهلًا بحاله،

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٣٩.

(٢) انظر: النكت والعيون، تفسير الماوردي، ٤/ ٢٥٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦١٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/ ٢٥٩.

ومريةً في صدقه، واستمر نوح في نصحهم، فأمره الله باتخاذ السفينة، وأغرق الكفار ولم يغادر منهم أحدًا، وصدق وعده، ونصر عبده، سبحانه فلا تبديل لسنته في نصرة دينه[1].

❁ **أخذ الظالمين بالرجفة.**

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨].

توضح الآية ما حل بثمود قوم صالح عليه السلام بعد أن عقروا الناقة، واستعجلوا العذاب، «جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد»[2].

كما أخبر عن حال قوم شعيب في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

❁ **أخذ المترفين بالعذاب.**

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٤].

بيَنت الآية السابقة أن المشركين يحسبون أن إمداد الله لهم بالمال والبنين هو خير يسوقه إليهم ورضا منه عنهم، وبينت أن لهؤلاء الكفار أعمالًا لا يرضاها الله من المعاصي، فابتلاهم الله عز وجل بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف، والمترفون أشد الناس استغراقًا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير، وها هم يفاجؤون بالعذاب الذي يأخذهم أخذًا، فإذا هم يرفعون أصواتهم بالجؤار، مستغيثين مسترحمين، وذلك في مقابل الترف والغفلة والاستكبار والغرور، فبذلك يتضح للجميع مصير من يكفر بالله ويتكبر على رسله ويكذبهم إلى قيام الساعة، وهذا المصير واقع لا محال في يوم من الأيام[3].

❁ **أخذ المجرمين بالصاعقة.**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥].

تبيَن الآية جراءة قوم موسى على الله وعلى رسوله، حيث إنهم قالوا بأنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة، فأخذتكم صاعقة الموت أو الغشية العظيمة، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وقوع ذلك، كلٌ ينظر إلى صاحبه[4].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات:٤٤].

---

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٤٤٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٤٨، معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٤٢٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢.

❁ أخذ الظالمين بالصيحة.

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

من الأقوام الذين أخذهم الله بالصيحة ثمود قوم صالح عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام، والصيحة: المرة من الصوت الشديد، والمراد بها هنا صيحة الصاعقة التي نزلت بقوم صالح عليه السلام فأحدثت رجفة في القلوب وزلزلة في الأرض، وصعق بها جميع القوم، فأصبحوا في ديارهم ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينج منهم أحد[(١)].

كما قال تعالى فيما أصاب مدين قوم شعيب: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

❁ الأخذ بالريح العقيم.

قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾[الذاريات:٤١].

يقول تعالى ذكره: وَفِي عَادٍ آية وعبرة، إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِيحَ العَقِيمَ يعني بالريح العقيم: التي لا تلقح الشجر[(٢)]، «ولا السحاب ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة، ثم قيل: هي الْجَنُوب، وقيل: هي الدَبُور»[(٣)]، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (نُصِرْتُ بِالصَبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَبُورِ)[(٤)].

فهذه هي قدرة الله تعالى وهذا هو عذابه الذي يوقعه على الأمم الظالمة والكافرة، فعلى أمثال هذه الأمم أن يأخذوا العبرة والعظة من الأمم السابقة.

ثانيًا: أخذ المجرمين والمترفين في الآخرة.

توعد الله عز وجل المجرمين والمترفين بالعذاب الأليم في الآخرة؛ لكفرهم به وتكذيبهم أنبياءه، وفيما يلي توضيح لألوان من العذاب الذي ينتظرهم يوم القيامة.

١. أخذ المجرمين بالنواصي والأقدام:

بين الله تعالى أن الملائكة تعرف المجرمين يوم القيامة بعلامات تميزهم عن غيرهم، فتأخذهم الملائكة من شعورهم وأقدامهم وتلقي بهم في نار جهنم والعياذ بالله، وهذا هو مصيرهم لظلمهم أنفسهم بالكفر والتمادي في الظلم.

قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ١٠٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٤٣٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٤٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (وإلى عاد أخاهم هودًا)، رقم ٣٣٤٣، ٢/ ١٠٣٠.

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

«يقول تعالى ذكره: تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسومهم الله بها من اسوداد الوجوه، وازرقاق العيون»(١).

فتأخذ الملائكة بنواصيهم، أي: بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار، قيل: تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه وتارة تأخذ بقدميه، وتسحبه على رأسه(٢)، وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان، حيث تجمع الأقدام إلى الجباه، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار، فهل حينذاك من تكذيب أو نكران(٣)، هذه هي نهاية المجرمين يوم القيامة والعياذ بالله.

٢. أخذ المجرمين والمترفين إلى جهنم بالأغلال:

توعد الله عز وجل المجرمين بالعذاب الأليم في جهنم يوم القيامة، ووصف في كثير من الآيات هذا العذاب، ورسم الصورة والحال التي سيكون عليها المجرمون عند تعذيبهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون، والآيات التالية توضح ذلك العذاب:

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٢].

تتحدث هذه الآيات عن المجرمين يوم القيامة، فتصف مصيرهم في هذا اليوم، وتبين العذاب الذي كان ينتظرهم لكفرهم بالله، فمصيرهم جهنم التي سعرت لهم ولأمثالهم، تلتهمهم فلا تشبع، «تتصاعد حسراتهم، ويتضاعف أنينهم ليلهم ونهارهم، فليلهم ويل ونهارهم بعاد، تكدرت مشاربهم، وخربت أوطان أنسهم، ولا بكاؤهم يُرحم، ولا أنينهم يُسمع»(٤).

فيأمر الله عز وجل الزبانية بأخذ كل مجرم وكافر للعذاب فيقول: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ بالأغلال الضيقة الثقيلة، ثُمَّ الْجَحِيمَ المسعر العظيم المعهود الذي يعد لأصحاب الثروة والجاه من الكفرة، صَلُّوه اطرحوه»(٥)، « ليصلى حرها، ثم أدخلوه في سلسلة حلق منتظمة طولها سبعون ذراعاً تلف على جسمه، لئلا يتحرك»(٦).

فكل آية من هذه الآيات كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض، وتنقض في جلال مذهل، وفي هول مروع، ثم

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٥٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٥١.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٧/ ٣٤٥٧.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٦٢٦.
(٥) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٤٤١.
(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٩٩.

يعقب ذلك كلمة القضاء الجليل، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب[1]، «وكيف لا يعذب الكافر كذلك؛ إِنَّهُ من غاية نخوته وتجبره قد كانَ لا يُؤْمِن ولا يذعن باللَّه الْعَظِيم المستحق للعبودية والإيمان عتوًا وعنادًا، ولا شك أن من تعظم على الله العلي العظيم قد استحق أسوأ العذاب وأشد النكال»[2].

فهذا عقاب كل المجرمين والمترفين يوم القيامة، فقد توعدهم الله في الدنيا وسيقع وعيده يوم القيامة.

ثالثًا: صفات أخذ الظالمين والمترفين:

١. أَخْذًا وَبِيلًا.

قال تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [المزمل:١٦].

بعد أن أرسل الله رسوله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، ولم يستجيبوا لدعوته، بل امتنعوا عن الإجابة، وعصوا موسى عليه السلام وكذبوه، والمعصية هي الكفر، فكان عقابهم من الله واقع لا محال، فهذا وعده لكل من يعصون رسله ويكذبونهم، وتبيَن هذه الآية ما وقع على فرعون وقومه نتيجة عصيانهم الرسول حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾، والوبيل هو: الشر، والمعنى: أخذناه أخذًا شديدًا، وأهلكناه ومن معه جميعًا، فأُغرق فرعون وعُذب هو ومن معه، وأقروا في عذاب مستقر حتى يُبعثوا إلى النار يوم القيامة كما توعدهم الله[3].

وهذه الآية توضح عاقبة كل من عصى الرسل، وخاصًا رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو المبعوث للناس كافة، وتبين أن عذاب الله واقع لا محالة وإن أَمْهَلهم، كما وقع على فرعون وقومه من قبل.

٢. أَخْذَةً رَابِيَةً.

قال تعالى : ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠].

تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن حال عاد وثمود، ومن قبلهم فرعون وقومه، حيث أرسل لهم موسى عليه السلام وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق، ولكنهم مع ذلك جحدوا وكفروا ظلمًا وعلوًا، وجاء من قبله من المكذبين قوم لوط، حيث وقع منهم الكفر والتكذيب والظلم والمعاندة، وارتكاب الفواحش والفسوق، كل أولئك وقع عليهم العذاب من الله تعالى نتيجة كفرهم وعصيانهم الرسل، فلم يبق لهم باقية، بل أخذهم أخذة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢٩/ ٣٦٧٥.

(٢) الفواتح الإلهية، النخجواني، ٢/ ٩٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٦٩٣، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٠٤.

رابية، أي: أخذة نامية بالغة الشدة، زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم[(١)].

٣. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

هذه الآية الكريمة تشير إلى استئصال القرى الظالمة الكافرة، فقد أخذهم الله أخذًا موجعًا لا يطاق، وهذا تهديد وتحذير من عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه، وليحذر كل ظالم وكل كافر أخذ ربه الأليم الشديد، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال[(٢)].

٤. أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ.

قال تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

أرسل الله عز وجل موسى وهارون عليهما السلام لفرعون وقومه، فكانوا رسل الله ونذره لهم، ولكنهم كذبوهم وكذبوا بآيات الله ومعجزاته العظيمة الدالة على صدقهم وصدق ما جاءوا به، فوقع عليهم عقاب الله تعالى نتيجة تكذيبهم الرسل والآيات، فقد أخذهم الله أخذ غالب في انتقامه، قادرٍ على إهلاكهم لا يعجزه شيء، فأبادهم وأغرقهم الله ولم يبق لهم مخبرًا ولا عينًا ولا أثرًا، وفي هذا تحذير الناس المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم من عاقبة تكذيبهم وكفرهم[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الجزاء، الحساب، العذاب، الميثاق

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ١٠/ ٢٧، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣٣٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٨٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٤٢٧، أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٤٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٤٨١، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٢٧١.